المحاضرة الثامنة

المطلب السابع عشر: في تربية الفتاة باعتبار تدبير المنزل

جاء في مؤلف السيدة بيتون الانجليزية في تدبير المنزل هذه العبارة «إن ربة البيت تشبه قائد الجيش فإن روحها منبثة في جميع أطراف المنزل ومنظورة من الخدم فإذا أتمت واجباتها بإتقان واحتفظت بالآداب العالية والسهر والانتباه تكون قدوة لخدمها فيحذون حذوها ويجتهدون في إتمام واجباتهم»

أجل إن سيدة المنزل مكلفة بأعمال وواجبات لا مندوحة لها عن القيام بها سواء كانت فقيرة أو غنية؛ فعلينا أن نعلم فتياتنا تلك الواجبات منذ الصغر حتى لا يقصرن فيها في الكبر، وعلينا أن نعودهن عيشة البساطة والنظافة وأن لا ندعهن يؤجلن إلى الغد ما يستطعن أن يفعلنه اليوم فإن كل يوم يأتي فيه عمله فإذا أضفن أعمال اليوم إلى أعمال الغد نتج عن ذلك مضاعفة الأعمال وزيادة التقصير فيها، وأحسن واسطة تمكن الفتاة من الأعمال الكثيرة هي تقسيم الأوقات وتنويع الأشغال، وبذلك نجد لكل عمل وقتا وتتجدد فيها القوة لمتابعة الأعمال بمجرد التنقل فيها من شكل إلى آخر.

يجب أن نربي بناتنا على حب العمل ونغرس في أذهانهن وجوب القيام بالأشغال المنزلية والصناعات اليدوية. يجب أن ندربهنَّ على

تمريض المرضى وتربية الأطفال ودفع الأسقام عنهم فإن من الخطأ ما كانت تعتقده الأمهات قديماً من أن التحدث بتربية الأطفال معيب لدى الفتيات كما أنه من الخطل أن تعتقد الفتيات أن الطبخ غير لازم إلا للفقراء منهن فإنه مهما توفرت أسباب الغنى للفتاة وكثرت لديها الخدم فلا بد لها من معرفة فن الطبخ حتى تتمكن من معرفة موضع الخلل في صنع الطعام وتنبيه الطهاة إلى إصلاحه وإلا اضطرت لأن تكون أسيرة بذوقها للخدم خاضعة لأميالهم فيما تكره؛ فعلى الأمهات أن يوجهن جل عنايتهن إلى تدريب بناتهن على الطبخ وسائر الأشغال المنزلية والواجبات البيتية، وبذلك يؤهلن لأن يكن ربات أسر ومديرات بيوت..

أما التي تترفع عن الأعمال أنفةً منها أو كسلا فإنها تكون عالة على زوجها بل حملا ثقيلا يضايقه فوق ما يتحمله من مسؤولية الأسرة وإعالتها وضمانة مستقبلها إذ يضطر لأن ينفق على الخدام والمراضع والمربيات والطهاة والخياطات ما يكفل حفظ نظام المنزل كأنما هو خلق ليقوم بواجبات الرجل والمرأة معا، وفي ذلك ما فيه من الحيف ومخالفة الأحكام العقلية والطبيعية، فضلا عن أن الخدم مهما كثر عددهم فهم لا يقومون مقام ربة البيت من حيث النظام والترتيب والاقتصاد.

كان لأحد سراة الشرقيين ابنة يحبها ويبالغ في رفاهيتها، ولم يكن يسمح لها في دخول المطبخ على الإطلاق فكانت نتيجة ذلك أنها ذاقت مع زوجها بعدئذ أنواع العذاب والتعب لجهلها فن تدبير المنزل، وعلى الخصوص صناعة الطبخ فكان زوجها كلما أراد إصلاح خطأ

الطاهي يذهب إلى أصدقائه فيستفهم من نسائهم عن أفضل الطرق لذلك ثم يعود وهو يعض شفاهه حسرة وألما مما يجده في نظام البيت من الخلل وما يحمله مرغما من ملاحظة الخدم وضبط حساب النفقات، على أن الحال لم تطل به كثيرا على هذا المنوال لأنه بعد سنوات مضت أصيب بالإفلاس فكان ذلك عقابا لتلك الزوجة وعبرة لسواها من النساء.

ولو أن المرأة تستفيد من هذه الرفاهية التي يضحي الرجل حياته في سبيلها ويعرض ماله للضياع من أجلها لهان الأمر ولكنها تضر بجسدها وعقلها فتضعفهما وتسقمهما وتحط من قدرها في أعين أفراد أسرتها إذ تكون بمنزلة صفر عن يسار عددهم.

ومما يحسن أن تمرن الفتاة عليه وضع الشيء في محله فإن كثيراً من الآنية الثمينة والرياش الجميلة ودواعي الزينة قد تقل قيمتها وتنبو العين عنها لمجرد وضعها في غير المحل المناسب لها. وأهم ما يجب اتباعه في تدبير المنزل هو الاقتصاد، قال أحد أدباء الانجليز أن المال لا يجلب السعادة للإنسان، ولكن السعادة لا تأتي بدونه؛ فعليك بالاقتصاد.

أجل يا سيداتي إن المال لازم للإنسان بل هو أهم ركن من أركان حياته إذ يتمكن بواسطته من نيل أهم رغائبه ولاسيما في عصرنا الحاضر الذي زادت فيه النفقات إلى حد لا بد منه في شرع التمدن وما يتبعه من دواعي الزينة والرفاهية والبذخ والإسراف، وأفضل وسيلة لإحراز المال هي الاقتصاد وأسهل واسطة للاقتصاد هي أن يستغني المرء عن أشياء كثيرة.

شوهد يوماً شيخ حكيم يسير في سوق حافلة بالحلي الثمينة والتحف النادرة وهو ينقل نظره من حانوت إلى آخر؛ فسأله أحد أصدقائه عما إذا كان يرغب في شيء منها؛ فأجابه باسماً: إنني أنظر لأرى كم يوجد من أمتعة وأشياء لا أحتاج إليها.

ولا غرو أن في عبارة هذا الحكيم، العبرة، يتبين لنا منها أن كثيرا من الأمور التي تبذل المال في سبيل إحرازها يمكننا الاستغناء عنها مثل أنواع الزينة والملابس والاتفاق على الأدب والرسميات وغير ذلك من الأمور التي لا يضر اجتنابها، بل قد يكون منه فوائد أدبية فضلا عن الفوائد المادية على أنه يوجد بين النساء من إذا تولت أمر النفقة تجهد في التقتير على أسرتها فتمنع عنهم ما هو لازم لحياتهم وصحة أجسادهم فتضربهم من حيث تقصد توفير بعض دريهمات قد تضطر لأن تنقدها يوما للأطباء والصيادلة، ومن ذلك يتضح ما على السيدة من دقة الملاحظات ومراعاة الواجب في كيفية الاقتصاد.

وقد تظن بعض النساء أن اتباع خطة الرجل بالإسراف من جملة الضروريات أو من موجبات الانتقام وقد يعتذرن أحيانا بقولهنَّ: لمَ لا ننفق على أنفسنا ونعيش في سعة ما دام المال ذاهبا من أيدي رجالنا في كل حال.

أجل.. إن من بعض الحق في ذلك ولاسيما إذا كان رجالهن من يتولون أمر الإنفاق ولا يدعون لنسائهم سبيلا لتدبير المعيشة بما يمكن معه التوفير، فأفضل ما تداوى به مثل هذه الحال هو أن تقنع المرأة زوجها بأي

الوسائل الممكنة أن يجعل لها راتبا شهريا، وحينئذ تتمكن من تدبير معيشتها بشكل يضمن راحتها ويحفظ لها من فضلات المال درعا يقيها شر العوز والفاقة. وأفضل وسيلة لإقناعه بذلك هي أن تحافظ المرأة على الدراهم التي تصل إلى يدها وتتدبر في أمر إنفاقها بحكمة بحيث تجعل في زوجها ثقة بحسن تدبيرها واقتصادها ومن ثم لا يبخل عليها بالمال ولا يتأخر عن تسليمها راتبا كافيا تنفقه بحكمتها على البيت والأسرة.

والاقتصاد واجب مقدس على ربة البيت يدعوها مركزها الطبيعي للقيام به؛ فأول ما يجب أن توجه اهتمامها إليه هو أن تجعل معيشتها في درجة معادلة لحالة زوجها المادية فلا تجهد نفسها عبثا مجاراة من هنا أوفر منها غنى وأكثر بذخا لكي لا تضطر بسبب ذلك إلى التقتير على آل منزلها فإن الظهور بمظهر موافق لحالتها المادية مع النظافة والآداب، لأفضل كثيرا من التلبس بالجاه الكاذب الذي يعود على صاحبته بالتعب الكثير والخراب العاجل، على أننا لو تبصرنا قليلا لرأينا في الاعتدال جمالا لا يقاس بالجمال الظاهري مهما بولغ في إتقان الزينة ولبس الحلي والحلل، فإذا ما رأت السيدة ابتسامة الارتياح والشكر مرسومة على شفاه زوجها وأدركت ما لها عنده من المنزلة السامية والثقة التامة تشعر بأنها حاصلة على سعادة لا يمكنها أن تنالها من البذخ والزينة مهما أكثرت منهما. ومتى أدركت السيدة هذه الحقيقة فقد اجتازت مرحلة كبيرة نحو الاقتصاد المنزلي وسهلت لبنيها وسائل الصحة والعلم والرفاهية مع حفظ نظام المعيشة وتوطيد الثقة الزوجية، وذلك بتضحية قليل من رغائب النفس التي لا فائدة منها.

وهناك أمر آخر واجب على السيدة إتمامه وهو أن تعمل بنفسها ما يمكنها أن تستغني به عن مساعدة الغير، ولا يكفي أن تشتغل فقط لمجرد التسلية بل يجب أن تفضل من الأشغال ما يخفض من أعباء النفقات فلا تشتغل مثلا بتطريز مخدة وتستأجر الخياطة لعمل قميص ابنها ولكن إذا أتمت الأشغال اللازمة لأسرتها فلا بأس من أن تلهو بما يحلو لها من الفنون الجميلة والأعمال الآيلة إلى ترتيب المنزل وتزيينه فإن هذه من الكماليات التي على حسنها ولزوم وجودها في المنزل ليست إلا ثانوية بالنسبة للضروريات.

والآن تسمحن لي أيتها السيدات أن أدخل وإيا كن إلى المطبخ فنبحث فيما يتعلق به بوجه الاختصار وعلى قدر ما يسمح لي المقام لأن المطبخ على ما يبدو لنا من صغره وحقارة منظره يستغرق من البحث ما لا تكفيه محاضرة أو محاضرات بل هو مما يستغرق المجلدات.

قال بسمارك: "إني لا أستحسن السيدة في حال مثلها وهي في المطبخ".. ومعلوم أن ذلك الرجل العظيم لم يقصد بقوله أنه يرتاح لمشاهدة السيدة وهي تغسل الأطباق والحلل، بل أن يراها عاملة على ملاحظة مطبخها ومعاينة كل ما يصنع فيه من الطعام، وسواء كانت هي التي تشتغل بيديها أو لديها الخدم والحشم فلا بد لها من مراقبة جميع معداته وإحصاء نفقاته والتميز في المواد التي يبتاعها الطهاة ومعرفة أثمانها ووزنها.

كانت إحدى السيدات الموسرات تشكو دائما من كثرة النفقات في منزلها مع عدم وجود الراحة التامة في نظامه؛ فسمعها يوما أحد

أصدقائها وهو من الرجال الحكماء فوعدها بأن يجد لها وسيلة فعالة لمداواة تلك الحال، وعليه أحضر لها علبة صغيرة من خشب الأبنوس لطيفة الصنع خفيفة الوزن، وقال لها: "احملي هذه في كل صباح وطوفي بها غرف المنزل وكراره ومطبخه ومتى انتهيت من ذلك عودي إلى سابق معيشتك؛ ففي هذه العلبة سر لا يباح لك الاطلاع عليه إلا بعد مرور عام كامل من هذا اليوم وهو يضمن لك نظام المنزل وإقلال النفقات".

ففعلت المرأة ما أشار به هذا الحكيم فاستقامت أمورها وخفضت نفقاتها إلى حد الثلاث، ولذلك تاقت نفسها كثيرا إلى معرفة ما تحويه تلك العلبة فما صدقت أن انقضى العام حتى فتحتها ونظرت فإذا في داخلها ورقة صغيرة كتبت فيها العبارة الآتية: (من واجبات ربة البيت أن تهتم بتدبير المنزل بنفسها) هذا كل ما في العلبة، على أن السر الحقيقي لم يكن في العلبة بل في طواف السيدة في المنزل لأنها بذلك كانت تلاحظ تقصير الخدم فتنبههم إلى واجباتهم وترى بعينها كل ما يأتي به الطاهي فلا يستطيع بعد ذلك أن يخادعها بالحساب أو يقيد ثمن شيء لم يبتعه في ذلك اليوم.

وقد تدهشن يا سيداتي إذا قلت لكن أن كثيراً من الأمراض التي تنتاب العائلات وتضر بأجسادهم تأتي عن بقايا اللحم القليلة التي تعلق في خشب الكرسي أو اللوحة التي يستعملها الطهاة لتقطيع اللحم ثم لا يعنون في غسلها جيدا فإذا ما لمست اللحم الجديد أفسدته وجعلته مضرا بآكليها، وهكذا الخضر التي تؤكل بدون طبخ كالخس والفجل

وخلافه، فإنها كثيرا ما تحمل جراثيم الحمى وغيرها من الأمراض فتفتك بآكليها إذا لم يبالغ بغسلها جيداً.

اتفق لي أن قرأت مقالة لأحد الأطباء في أميركا بين فيها أن أسباب الإصابة بالدودة الوحيدة هي أكل الخضر النيئة في حالة القذارة، وذلك أن دم الخنزير قابل لنمو هذه الدودة وهي قلما يخلو منها هذا الحيوان، ومعلوم أنه متى وجدت جراثيمها في الدم لا بد أن تظهر في البراز أيضا بحيث أنه متى رعت الخنازير مكانا تركت فيه أثرا من برازها ممزوجة بجراثيم الداء فإذا جاء وقت استنبات الخضار ظهر عليها شيء من تلك الجراثيم تحملها أوراقها النضرة وتنقلها إلى المعدة.

ومع ذلك فقد نرى من النساء من تشاهد ولدها يأكل الخس من البائع مباشرة بدون غسل فلا تنهاه بل هي إذا قيل لها في ذلك تجيب (خليه يتعود) ولكن بربكن أين وجه الفضل في تلك العادة حينما تجرع الأم ولدها بيدها كأس الأسقام مترعة بالميكروبات القتالة وتسوقه بجهلها إلى ساحة الموت التي هيهات أن ينجو منها ثم تقول (خليه يتعود).

وعلى الجملة فإن الفتيات قلما يدركن ماهية العناية الصحية والواجبات البيتية فيستخففن بها زاعمات أنها ليست من الأمور التي يجب أن يعبأن بها، وأنه يكفي ربة البيت ولاسيما الموسرة أن يكون لديها وصيفة أمينة توكل إليها إدارة أعمال المنزل وملاحظة الخدم والمطبخ. وفاتها أن كثرة الخدم في البيت تستدعي زيادة اهتمام السيدة وتيقظها لأن الخطر منهم يصبح أشد وسبل الخيانة والسرقة أوسع. ولا

يكفي الفتاة أن تكون عارفة بالأعمال البيتية بل أن الذوق والمهارة من أول واجباتها وهذا ما يمكنها اكتسابه بالاختبار والمطالعة ومعاشرة فضليات النساء..

هذا ولو أردت أن ألم بأطراف هذا الموضوع وأتناول بحثي كل دقيق من أجزائه وفروعه لضاق بي المقام، ولكني أنتقل منه الآن إلى الواجبات الزوجية، وهي المرحلة المهمة من حياة المرأة.

المطلب الثامن عشر: ترشيح الفتاة للزواج

لا بد لي قبل الشروع في هذا الموضوع من أن أبين الفائدة التي تنجم عن إعداد الوالدين بناتهم للزواج منذ الصغر؛ فإن تكييف العقل – وهو بعد ضعيف مرن – لأسهل جدا منه بعد أن ينمو ويقوى، واغتذاء الفتاة بمحاسن صفات والديها وصدق إرشاداتهم لأحكم وقعاً في نفسها وأشد رسوخاً من اقتباسها الحسنات بنفسها عند الكبر خصوصاً وأن التعلم بالاختبار لا يكون إلا متأخراً أي بعد وقوع الحوادث التي تؤلم عواطفها وتجعل لها من أثرها أمثولة بعد أمثولة تتصفحها بعينين مغرورقتين بدموع الأسف التي قلما تفيدها بعد ذلك لأن منزلتها تكون قد انحطت لدى عائلتها وقلب زوجها قد ابتعد عنها فيصعب عليها أن تسترده.

ولذلك أقول بوجوب اهتمام الوالدة بنصيحة ابنتها وإرشادها إلى معرفة الواجبات الزوجية وهي بعد فتاة بحيث يكون لها من سعة العلم بأخلاق الرجال والإلمام بأسرار الوجود ما تتمكن به من اتقاء كوارث الحياة بحسن سياستها وقوة صبرها وحكمتها.

ولكي تصل إلى هذه الغاية يجب قبل كل شيء أن تفهم حقيقة رجلها كما هو ليس كما تصوره لها أميالها ورغائبها فتعلم بأنها ككل مخلوق بشري فيه معايب وفضائل وأميال وأخلاق مختلفة قد تكون مستحسنة لديها أو مكروهة في عينيها ففي كل حال يجب أن تدرسها وتنحتها ما أمكن ثم تضيف إليها من مادة آدابها ما يمكن معه تشييد دعائم مستقبلهما وحفظ كيان راحتهما. ومن العبث وضياع العمر أن تحاول تغيير أخلاقه أو محو ما انطبع في ذهنه من صور الصفات الغريزية بالقوة والشراسة فإن ذلك فضلا عن أنه لا يأتي بفائدة فهو قد يعود عليها بالأذى والفشل عودة الغصن الصلب بعد محاولة له، وليس ذلك لأن الرجل شديد الصلافة والصلابة بل أن تطاول اليد لآدابه قد يمس كبرياءه ويزيد ببعده عن محجة الهدى. فإذا رأت الزوجة فيه عيبا، ورامت إصلاحه فليكن بالتوسل تارة والإغضاء طورا مع التودد والملاطفة والانعطاف والتسليم حيث لا ينفع الجدال فإن سلاح المرأة لطفها وصبرها، أما المكر والحيلة فهما بضاعة الخاسر.

سألت فتاة يوماً عقيلة المستر غلادستون، وهي مثال الزوجات الفاضلات كيف تهيأ لي السعادة في الاقتران فأجابتها ادرسي أخلاق زوجك ووافقيه عليها فإن المرأة أسهل مطاوعة وألين عريكة من الرجل، فعليها أن تكون البادئة في التوفيق بين طباعها وطباعه وأن تبذل في ذلك قصارى جهدها.

ولقد جرى أكثر الناس ولاسيما الشرقيون في تهذيب بناتهم على

قواعد سطحية لا تتجاوز بتأثيرها صقل الظواهر الخارجية فتبدو لعين الرجل جميلة زاهية تنبئ بصفاء جوهر النفس وحسن استعدادها، ولكن ذلك لا يثبت تحت محك الامتحان فأحرى بالفتاة أن لا تتخذ الجمال أساسا لبناء مستقبلها، ولا تكتفي باللباقة واللطف رأس مال لنجاحها وسعادتها، ولا تجعل العناء والتسلط وسيلة لنيل أمانيها وتحقيق رغائبها، بل تعتبر أن الزواج عبارة عن ضحية تقدم له نفسها بجملتها فمتى كانت غير مستعدة أو غير قادرة على تضحية نفسها ووقتها وقلبها على هذا المذبح المقدس تخير لها أن تبقى عذراء فتنقذ بذلك رجلا من العذاب وأولاده يشاطرونها الشقاء والأتعاب.

ويجب تعليم الفتاة أن أهم واجبات الزوجة الفاضلة هي المحافظة على أسرار زوجها فإن شقشقة اللسان من أعمال الطيش ونتيجتها سقوط منزلة المرأة والإضرار بزوجها، وكذلك إذا وجدت فيه عيبا فلا يجدر بها أن تبينه لصديقاتها حتى يعلم القاصي والداني بدخائل أمره خصوصا وأنه لا فائدة لها من وراء الإضرار به على هذه الصورة الممقوتة إلا إذا كانت تقصد أن تظهر للملأ ما هي عليه من التعس والشقاء معه، وفاتها أنه إذا كانت التي تشكو إليها عدوة لما سرت لشقائها وتمنت لها المزيد منه، وإذا كانت صديقتها حزنت لحالتها لأنها عاجزة عن تفريج كربها، وفي كلا الحالين لا تفيدها الشكوى سوى الفضيحة لأن الكلمة التي ينطق بها صاحبها تملكه وأما التي يحفظها فيملكها.

ولابد من الفكاهة بالحديث فإن الابتسام زينة الكلام وهو لازم

للحياة لزوم الملح الطعام ولكن مع الحذر والتروي، وكذلك البشاشة فإنها من أعظم البواعث على دوام الحب والهناء بين الزوجين.

وأفضل صفات في المرأة الاقتصاد فإنه مدعاة الراحة والثقة بين الزوجين، وهي كلما زادت بالحرص والتوفير زادها من البذل والسخاء اعتقادا منه أن أمواله لا تذهب من يدها عبثا وأن ما تدخره من المال يحفظ له ولأولاده، وبعكس ذلك متى رآها مائلة إلى البذخ والزينة فإنه لا يلبث أن يقتر عليها ويشكو دهره أبدا لديها فلتجتهد في أن تكتسب ثقته بتوفيرها ورصانتها وتجتذب رضاه وارتياحه بتدبيرها وحسن نظام معيشتها فإن الدقة والسلام مع المعيشة البسيطة أجمل جدا من جميع زخارف العالم يتبعها التعب والخصام.